

نشأة المتنبي

للمؤلف الشيخ عبد الوهاب النجار

ناظر مدرسة عثمان مامر باشا
(والأستاذ بدار الموم سابقا)

نسب : اختلف النسابون في نسبه ، فقليل هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ابن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور .

وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار
لا أعلم في شعراء الاسلام رجلا تناوله الناس من العلماء والأدباء بالتحليل لنفسه ، ونقد شعره وتقريره ، كأبي الطيب المتنبي ، وأبي العلاء المعري . وفي كل جيل تظهر لأهل الأدب مباحث في نواحيه المختلفة ، وآراء ومذاهب فيه وفي شعره وفيونته التي طرقها وشهرها . وقد مضى على وفاته ألف سنة ، والناس لم ينتهوا في شأنه إلى أمر يحسن السكوت عليه . وسوف تمر ألف سنة وألف سنة وذكر المتنبي جديد ، والبحث في نفسيته وعقليته وعواطفه وميوله وحكمته وشجاعته وغزارة علمه متواصل ومتدارك ، وسيسمع غيرنا بعدنا آراء أدباء زمنهم فيه وفي شئونه ونواحيه المختلفة ، بكيفية لم تطرق أسماعنا ولم يعرفها من قبلنا . فإن الرجل بحق ترك في الناس دويًا هائلًا كما قال

وَتَرَ كُكَّ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أُنْمَلُهُ الْعَشْرُ
وَإِنِّي لَأَرَى مِنَ الْأَثَرَةِ أَنْ ينفرد أبو العلاء المعري بأن الناس يكررونه ليفهموه ، فقد شاركه في هذا المصنف الذي يدل على العبقرية والنبوغ الفائقين أبو الطيب المتنبي إذ يقول المعري :

يكررن لي فهمني رجال كما كررت معنى مستعادا

وعلى ذكر أن الناس يكررون المتنبي ليفهموه أقول: إنى رأيت كتابة لأحد الأدباء وقد تكلم على ما ذكره بعض الشعراء فى أبيات، من أن أبا المتنبي كان يبيع الماء فى الكوفة، فوقف ذلك الأديب يتساءل، من أين جاءت للمتنبي هذه النزعة العالية، نزعة التطلع إلى الإمرة، وتبوء عرش الملك وقد نبت فى بيئة وضيعة، وامتحن مهنة وضيعة، وهى بيع الماء، وليس من شأن من كان كذلك أن تنزع به همته إلى معالى الأمور؟ وإنى أجيب ذلك الأديب الفاضل بما يأتى:

أولا: بأنه أخذ قول خصوم المتنبي حجة عليه وبرهاناً ثابتاً، لا يقبل التنبى، دون أن يقدم ذلك الهاجى، أية حجة على مارمى به المتنبي، من أن أباه كان يبيع فى الكوفة الماء؛ فكان من حقه أن يتثبت قبل أن يقطع.

ثانياً: أنى لا أرى مارأى، من أن يبيع الماء أمانة من أمارات المهانة؛ فقد يكون احتراف يبيع الماء إنما نشأ عن نزعة كبرياء، وعلو فى النفس، عزفت به عن الوقوف موقف الذلة، يسأل كريماً أو بخيلاً يعطى أو يمنع. وقد تذكرت (والشئ بالشئ يذكر): أنه كان يوجد فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، رجل يسن السكاكين والمقاص بالآجر، على مسن له؛ وكان اسمه عبد المجيد السنان؛ وكان الرجل إذا فرغ من عمله، وحصل رزقه، يخلع ملابس الاعتمال، ويلبس عمامة عراقية، وملابس تشبه ملابس العلماء فى اسطنبول، ويجالس العلماء الفضلاء، ويباحثهم فى بعض مباحث علم الكلام، ويظهر بمظهر المتفوق الفالج بالحجة. فوقع إلى المنصورة واتصل بمفتيها، الشيخ محمد راضى الكبير، وكان عالماً فاضلاً، ووُجد السنان فى مجلس لمدير الدقهلية، المرحوم خليل عفت باشا. فقال له البابا: إذا كنت على شئ من العلم، فلماذا تحترف حرفة سن السكاكين، وهى حرفة حقيرة؟ فقال له: إنى بهذه الحرفة أكسب عيشى بعمل يدي؛ وأكرم نفسى عن أن أقف يبابك، أو يباب غيرك سائلاً، فيعطينى أو يردنى.

وغضب البابا على المفتى، لانتصاره لهذا الرجل؛ فكتب إلى نظارة الحقانية أن المفتى يروج آراء رجل زنديق، ينشر الإلحاد فى مديرية الدقهلية؛ فما كان من نظارة الحقانية إلا أن رفعت المفتى، دون تحقيق ولا تبين، وجاء المفتى وقابل ذوى

الحل والعقد، فعين مدرسا في الأزهر، وعرف له القامون على الأزهر فضله، وأجرى عليه ما لا ينقص عن مرتبه الذي كان يتقاضاه، وقد كتب الشيخ السهمودي من علماء المنصورة كتابا كبيرا في التشيع على الرجل السنان، وعلى المفتي، انتصاراً لحليل عفت باشا.

وشاهدني في ذلك، جواب عبد المجيد السنان لعفت باشا، فليس احتراف الحرقة التي يعتبرها الناس مهينة بالدال على هوان محترفها، ولا بالذي يطفى نزوات النفس إلى معالي الأمور - وقد كانت كناس يكنس الشوارع وينقى عنها الأذى وينشد.

وأكرم نفسي؛ إني إن أهنتها وحقك - لم تكرم على أحد بعدى فسمعه إنسان فقال: له الويل؛ وأى هو أن تكرم نفسك عنه، وأنت على هذه الحال؟ فقال له الكناس: أكرمها عن الوقوف على باب بخيل مثلك. وبعد هذا. فإن أبا الطيب قد أجاب ذلك الأديب بقوله:

وَكَمْ مِنْ غُلَامٍ عِلَّمَ الْمَجْدَ نَفْسَهُ ! كَتَعْلِيمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا
من قصيدته التي مطلعها:

فَدَيْنَاكَ مِنْ رُبْعٍ ، وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا

فَأَنْتَ كُنْتَ الشَّرِّقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا

نشأ المتنبي بالكوفة، وقدم الشام في صباه، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها، وكان من المكثرين من نقل اللغة، والمطلعين على غريبها وجوשיها؛ لا يسأل عن شيء إلا استشهد عليه بكلام العرب من النظم والنثر؛ حتى قيل إن الشيخ أبا علي الفارسي، صاحب الإيضاح والتكملة، قاله يوما: كم لنا من المجموع على وزن فعلي؟ فقال المتنبي في الحال: حجلى، وظرفنى. قال الشيخ أبو علي: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجده لهما من الجمع ثلثا فلم أجده.

كان المتنبي خصب ذهن، سريع الخاطر، جزل اللفاظ، غواصا على المعاني،

والحكم، ينظمها ويسيرها في الناس؛ وغزله جيد على قاته؛ أما وصفه للأشياء الطبيعية أو المادية والابل والصحارى والجبال والحرب والطعان، فياً، من وراء الغاية كان المتنبي متبرماً بالزمن الذي لم يساعفه على بلوغ مراده، وبملوك زمانه؛ لأنه كان يراهم دونه في الفهم والعلم وسائر المواهب التي تكون بها السيادة، وقد تبكوا في العروش، وعصبت برؤوسهم التيجان، وأطلقت أيديهم في الأموال التي يجنونها من الرعية، ويده صفر من كل ما أوتوا؛ وكان متأففاً من شعراء دهره الذين يحقدون عليه، ويغبطونه حقاً، ويذمونهم بألوان المذام، ويحقدون أصله، وهو تارة يحقر شأنهم ويلغى ذكرهم (كما ألغيت في الدية الحوار) وتارة يسم آثافهم بهجوه، ولا ينظر إليهم إلا من عل.

فمن قوله في شعراء دهره :

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُّوا بِذِمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا ؟
وقوله :-

خَلِيلِي إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلَمْ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ ؟
فَلَا تَعْجَبَا ، إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ
ومن قوله في حساده :

أَزَلَّ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكِبَتِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَدَا
وقوله :

بَلَعْتُ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الثُّورَ رُتْبَةً أَثَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ
إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُوْا بِلُحْيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : الْحَقِ
وَمَا كَمَدَ الْحُسَّادِ شَيْئًا قَصَدْتُهُ وَلَكِنَّهُ مَنْ يَزَحِمُ الْبَحْرَ يَفْرِقُ
وقوله :

وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ قِيَمًا يَرِيئِي أَصُولٌ ، وَلَا لِلْقَائِلِيهِ أَصُولُ

أُعَادَى عَلَى مَا يُوجِبُ الْحُبَّ لِلْفَى وَأَهْدَأُ ، وَالْأَفْكَارُ فِي تَجْوَلٍ
وقوله :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِي شُوَيْرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِنِي ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ ؟
لِسَانِي بِطَقِي صَامِتٌ عَنْهُ دَادِلٌ وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلٌ
وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تُجِيبُهُ وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ

والذي يدل على قدر المتنبي وفضله، وبلوغه الغاية التي لا يدانيه فيها أحد من خصومه (مهما علوا وكرموا) من عاصروه أو عاشوا بعده إلى يومنا الحاضر - أنهم وسموه بكل أنواع العيوب ، ونسبوا إليه ما قدروا عليه من التيه والكبر ، والبخل والحرص على المال ، وضعة الأصل ، والتقاب في المبادئ والأخلاق . ومع ذلك كله ، لم تنس الأيام الناس ذكره ، ولم تمنع الأدباء من التمثل بأبياته ، والاستشهاد بما سير في الناس من أمثال ، وما أشاعه فيهم من الحكم الغالية ، والنصائح العالية ، وشعره في المدح والقدح سلوة كل منشئ ، وأغنية كل غريد مردد . فهو جديد على مرور الأيام ، وكرور الأعوام ، لم تبلى الأيام جدته ، ولم تخلق ديباجته ، ولم يزل الناس ، يفتخرون الواحد منهم ، بأن يقول : قال أبو الطيب كذا ، أو قال المتنبي كذا ، ويأتى بالدرر اليتيمة من أقواله ، يفصل بها عقود مدحه أو قدحه . ولا نجد أحدا يقول : قال شيوخ ابن خلدون ، أو قال فلان أو فلان من خصومه والشافئين له ، والزارين عليه من أهل جيله أو من بعدهم .

ولقد أدركنا المرحوم الشيخ أحمد أبو القزح ، شاعر دمنهور في القرن التاسع عشر ، وهو إذا نظم شطر بيت أعجبه معناه أو بيتا راقه حسنه ، قام واقفا متبخترا وهو يقول : والله ما قال مثله المتنبي ، وهو لا يأبه لغيره ، ولا يجرى لسانه بذكر أحد من حساد المتنبي والحاقدين عليه إهانة لهم ، وتزيها لشعره أن يقاس بشعر أحد سواه .

وأما قوله في الملوك وتكبره عليهم ، فقد جاء في ذلك قوله :

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ مَقْعَهَا وَمَا يَقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الضَّرَّ أَحْسَنَ مَنْظَرًا وَأَهْوَنَ مِنْ مَرَّأَى صَغِيرٍ بِهِ كِبَرُ

وقوله :

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ غَدًا وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ

وقوله :

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقًّا وَقَيْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ
وَتَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى لَكَ لَهَبَوَاتُ السُّودِ، وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

وقوله :

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ ؛ وَمَا تَفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ وَلَا عُهْدٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَّةٌ

ولقد علم الخاص والعام ، أن أبا الطيب كان متقلبا في أخلاقه ، لا يصبر على طعام واحد ، ولا يتحاشى أن يذم بعد مدح ، وأن يطرى بعد قدح ، ولكن هل كل ذلك يصرف وجوه الناس عن شيء مما في قوله من الأدب ؟ لا ، بل كان كل ذلك حاديا للناس على النقاط الحكيمة من أصداف أقواله ، مغريا لهم بالازدياد من النهل من معينه ، والاعجاب بما تضمنه قوله من صنوف الأغراض في كل باب ؛ يشهدون له بالبراعة في كل باب طرقة . وأما الناظرون إلى الأخلاق النفسية والفضائل المكتسبة والفطرية ، فقليلون في جنب من يعجبون بأقواله على أي حال صدرت ، وفي أي غرض وردت .

عبد الوهاب النجار